عنوان الورقة :

التواصل مطلب شرعي وضرورة اجتماعية

مقدمها :

الدكتور / عبدالعزيز بن فوزان الفوزان

بسم الله الرحمن الرحيم

التواصل مطلب شرعي وضرورة اجتماعية

الحمد لله الذي هدانا سبيل الرشاد، وفضلنا بهذا الدين على سائر العباد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شرع لنا من الشرائع والأحكام ما يحقق به مصالحنا في المعاش والمعاد. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل رسول وأكرم هاد. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم التناد.

تمهيـــــد

قبل الحديث عن ضرورة التواصل بين الجمعيات الخيرية والمجتمع لا بد من من التأكيد على عدد من الحقائق المهمة، يتعلق بعضها بالجمعيات الخيرية والداعمين لها، ويتعلق البعض الآخر بالمستفيدين منها.

أما ما يتعلق بالجمعيات الخيرية والداعمين لها، فهي الحقائق الآتية:

الأولى: أن العمل الخيري الإسلامي ـ على الرغم من وجود بعض الثغرات فيه، وعدم قدرته على الوفاء بالحاجات القائمة ـ قد بلغ في السنوات العشر الأخيرة شأواً بعيداً، ومستوى عالياً من الشمولية والعموم، والتخطيط والتنظيم، وتلمس الحاجات، ودراسة المناطق والجهات المستهدفة، وتوسيع دائرة العمل الخيري ليصل إلى كل بلاد المسلمين والأقليات المسلمة في العالم، ووضع الاحتياطات اللازمة لإيصال المساعدات لمستحقيها، وتحقيقها للأهداف المرجوة منها.

كما أنها ولله الحمد حققت نتائج كثيرة مشكورة، سواء في مجال الإغاثة والإعانة للمسلمين، وتفريج كرباتهم، والمحافظة على هويتهم، وحماية دينهم وأخلاقهم، ومناصرتهم وتقوية جانبهم. أوفي مجال الدعوة إلى الله ونشر العلم الشرعي المؤسس على الكتاب والسنة وفق فهم السلف الصالح.

وأصبحت الجمعيات الخيرية الإسلامية - على الرغم من قلة مواردها وكوادرها، ومحدودية عددها، والعقبات والعوائق الكثيرة التي تعترض طريقها - تضاهي كبريات الجمعيات التنصيرية التي تلبس لبوس الإغاثة والتثقيف والتعليم. بل إنها والفضل لله تتفوق عليها بمراحل كثيرة في إدخال غير المسلمين في الإسلام، وتثبيت المسلمين على إسلامهم.

وما ذلك إلا لأنهم يدعون إلى الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وجعله دين الفطرة المستقيمة والعقل السليم، ورتب على التمسك به سعادة الدنيا والآخرة.

كما أن القائمين على هذه المؤسسات الإسلامية عندهم من الإخلاص والاحتساب والعفة والأمانة والمحافظة على أموال المسلمين ما ليس عند أولئك الكافرين، الذين يجمعون مئات المليارات من الدولارات، فيذهب أكثرها لجيوب المتنفذين في تلك المؤسسات والعاملين فيها فلا يكاد يصل إلى الجهات المستهدفة منها إلا القليل.

أما المؤسسات الإسلامية فإن الله تعالى يبارك في أموالها وجهودها، فتحقق بالدولار الواحد وبالجهود القليلة المحدودة ما لا يحققه أولئك بآلاف الدولارات، وبأضعاف ذلك من الجهود والإمكانات.

وهذا مما يثير حفيظة أعداء هذه الأمة، ويزيد في حنقهم الشديد على هذه المؤسسات والجمعيات الإسلامية، ويبعث في نفوسهم علامات استفهام كثيرة في أسباب نجاح الجمعيات الإسلامية، وفشل جمعياتهم على الرغم من تفوقها مادياً وتقنياً وإعلامياً ومعلوماتياً وإدارياً ودعماً سياسياً.

الثانية: أن لبلاد الحرمين الشريفين ممثلة بولاة أمرها، وعلمائها ودعاتها، وتجارها وأخيارها، وطلابها وممثليها المنتشرين في أنحاء العالم، أثراً بالغاً في نشر الإسلام ومناصرة قضايا المسلمين، والاهتمام بهم ومعايشة آلامهم وآمالهم، وتفعيل النشاطات الدعوية والتعليمية، ودعم الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في شتى أنحاء العالم، ولا أجاوز الحقيقة إذا قلت إنه لا يكاد يوجد مركز إسلامي أو مؤسسة خيرية إسلامية إلا ولهذه البلاد المباركة القدح المعلى، واليد

الطولى في إقامتها ودعم نشاطاتها، وتصحيح مسيرتها، من خلال الدعم المادي والمعنوي والفكري، وإقامة اللقاءات العلمية، والدورات الشرعية، والمخيمات التربوية، وكفالة الدعاة، وتوزيع الكتب والأشرطة وغيرها.

وليس هذا بغريب على هذه البلاد المباركة، فهي مهبط الوحي وقبلة المسلمين، ومنها انطلق الإسلام وإليها يأرز، وهذا هو قدرها، وتلك هي مهمتها العظمى التي ائتمنها الله عليها، وشرفها بحملها (لتنذر أم القرى ومن حولها) (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) أي: أن هذا الدين عز وشرف لكم في الدنيا والآخرة، ولكنه مسؤولية عظيمة وتبعة ثقيلة، سوف تسألون عن القيام به وحمله وتبليغه للعالمين.

كما أن هذه الحقيقة تفسر لنا تلك الحملات الشعواء التي تشن على هذه البلاد، وهي حملات سياسية واقتصادية وإعلامية ودعائية واستخبارية يقصد بها إيقاف هذه النشاطات الخيرية، وتجفيف منابعها، وتخذيل القائمين بها، وإعاقة جهودهم، ورميهم بما هم منه براء، وإشغالهم بالمدافعة والمصاولة عن الاستمرار فيما يقومون به من الإغاثة والدعوة.

وهذه الحرب المسعورة ضد الجمعيات الخيرية جزء من سنة الله تعالى في ابتلاء المسلمين بالكافرين، وامتحان بعضهم ببعض (ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)

والمعركة بين الحق والباطل، والإسلام والكفر معركة طويلة شرسة، بدأت منذ أن أهبط الله آدم وإبليس إلى الأرض، وقال لهما: (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ولن تزال مستعرة مشبوبة إلى يوم القيامة، وإن الحرب بيننا وبين أعدائنا محتدمة في كل مجال، وعلى جميع الأصعدة، فلم يترك أولئك الأعداء فرصة ينالون بها منا إلا اهتبلوها، ولم يدعوا مجالاً يستطيعون أن يحاربونا من خلاله إلا سلكوه، فوظفوا كل ما يملكون من إمكانات وقدرات، وتقنيات وصناعات، واستعلاء سياسي وتفوق عسكري واقتصادي وتنظيم إداري، وسيطرة دعائية وإعلامية لحرب الإسلام وإيقاف مده، ووضع العقبات والحواجز في طريقه، وتشويه صورة

المسلمين وتنفير الناس منهم، وإضعافهم وشل قدراتهم، وإجهاض قوتهم، ومنعهم من أسباب التقدم والنهوض، ووسائل التأثير وصناعة الحياة.

ولا غرو في ذلك فهم أعداؤنا، ولسنا ننتظر منهم غير ما يفعلونه بنا ويكيدون به لديننا، وقد أخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه عن حقيقة هذه المعركة، وطبيعة هذه الحرب، وأنها حرب دينية عقدية تستهدف الإسلام ذاته، وتسعى للصد عن سبيل الله، ونشر الباطل والفساد في الأرض.

والهجمة الشرسة على الجمعيات والمؤسسات الإسلامية الخيرية والدعوية جزء من هذه الحرب الضروس التي تشن على أمة الإسلام في مجالات كثيرة، بل إن الحرب على هذه المؤسسات أشد ضراوة من غيرها، لأنهم يدركون أثر المال والدعوة في نشر الإسلام وتقوية المسلمين، وهم يرون آثار هذه المؤسسات، والمكتسبات الكثيرة التي حققتها للإسلام وأهله.

وإن هذا التشنج في إصدار القوائم تلو القوائم عن المؤسسات الإسلامية الخيرية، واعتبارها مؤسسات إرهابية تدعم الإرهاب وتغذيه، وبموجبها جمدت حساباتها، وأغلقت مكاتبها، وسحبت تراخيصها، وأقيمت الدعاوى على منسوبيها والمتعاونين معها، بل وتجاوزوا ذلك إلى اتهام التجار الداعمين لها، والحكومات المتعاطفة معها والتشهير بها، إن هذا كله مظهر من مظاهر هذه الحرب الظالمة، التي يراد بها تعطيل هذه المؤسسات وتجفيف منابعها، أو تعويقها وشل نشاطها، وإشغالها بالمدافعة والمصاولة عما تقوم به من الدعوة والنصرة.

فالجمعيات والمؤسسات الإسلامية الخيرية إذاً في ساحة جهاد، وهي على ثغر عظيم من ثغور هذا الدين، وتخوض حرباً فرضت عليها من قبل أعدائها والمتربصين بها، فالواجب عليها إدراك هذه الحقيقة، والتأهب لهذه المعركة الطويلة، وألا يكون أعداؤها أطول نفساً وأكثر صبراً منها، قال الله تعالى: (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) ويقول تعالى مصبراً عباده ومعزياً لهم، ومبيناً حسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة: (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) وبين سبحانه سنته في ابتلاء المؤمنين بالكافرين وما ينالهم منهم

من الأذى قولاً وفعلاً فقال: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) أي: أن الصبر على هذا الأذى ومدافعته من الأمور التي عزمها الله وأمر بها عباده، ولا يقدر على القيام بها إلا أولوا العزائم القوية والهمم العلية.

وقال عز من قائل: (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) فهم إن وجدوا سبيلاً علينا، لم يتورعوا عن بسط أيديهم وألسنتهم بالسوء إلينا، وصدنا عن ديننا وردنا على أعقابنا خاسرين، فنحن إذاً أمام هذا العدوان الصارخ بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن نستخذي لهم وننكص على أعقابنا ونكفر كما كفروا، وإما أن نهب لمدافعتهم ورد كيدهم وعدوانهم.

ولا محيد لنا عن الخيار الثاني، فهو واجبنا، وعنوان فلاحنا في عاجل أمرنا وآجله. قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)

فأمر سبحانه بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، ورتب على ذلك حصول الفلاح في الدنيا والأخرى. والصبر هو حال الصابر في نفسه، والمصابرة هو حال الصابر مع عدوه، فلا ينبغي أن ينفد صبر المؤمن مهما طالت المجاهدة، واشتد الأذى وعظم الكيد. والمرابطة هي لزوم الثغور التي يخشى دخول العدو منها، ويدخل فيها الأخذ بمبدأ الحيطة والحذر، والفطنة والكياسة، وحسن التدبير والسياسة، بحيث لا نجعل لهؤلاء الكافرين سبيلاً علينا من خلال تصرفات هوجاء، وانفعالات طائشة، وشعارات فارغة، وقرارات مرتجلة، وإذاعة لما ينبغي ستره، وسكوت عما ينبغي كشفه ونقده.

كما لا يجوز لنا أن نخضع لهؤلاء الأعداء، ونستجيب لكيدهم وإملاءاتهم، ونتنازل عما يجب علينا من الدعوة والنصرة، والمجاهدة والمرابطة، لأن تنازلنا لهم سيطمعهم في المزيد، ولن يرضيهم عنا إلا أن نتخلى عن ديننا، ونخون أمانتنا، ونقعد عن القيام بواجباتنا، بل وأن نجير

مؤسساتنا لخدمتهم، ونوجه جهودنا وطاقاتنا لنشر باطلهم، ومشاركتهم في إثمهم وضلالهم. وهيهات هيهات، ولأن نقذف في النار أهون علينا من أن ننكص على أعقابنا بعد إذ هدانا الله.

ولا يعني ذلك أن نستفزهم ضدنا، أو نحرضهم علينا وعلى مؤسساتنا، أو نجعل لهم سبيلاً لتعويق مشاريعنا والحد من نشاطاتنا، وبخاصة أنهم يملكون من وسائل القوة والتأثير والهيمنة ما لا نملكه مع الأسف الشديد.

كما لا يعني ذلك الدخول في مغامرات متهورة، وتصرفات عنترية خاسرة، أو أن ندع الاحتياطات اللازمة التي تقتضيها الفطنة والكياسة لنحقق أهدافنا بطرق ذكية مدروسة، ووسائل مشروعة، والتزام بالقوانين المعمول بها في المناطق والدول المستهدفة، بحيث لا يبقى لهم سبيل قانوني لاتهامنا وملاحقتنا بحجة مخالفة الأنظمة والقوانين المرعية.

فالسلامة لا يعدلها شئ، والعاقل الموفق هو من يستثمر كل الفرص والوسائل المتاحة، ويسعى وسعه لتجنب العقبات والعوائق التي قد تعترض طريقه.

والتهور والعجلة، والاتكالية وقلة المبالاة، والاستهانة بالخصوم وتجاهلهم، أو استعداؤهم وإثارة حفيظتهم، جهل وسفه، لا يقره شرع قويم ولا عقل سليم، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا بليتم فاصبروا).

ومن الواجبات المتحتمة في هذه المرحلة مواجهة تلك الاتهامات الظالمة بكل قوة وحزم، وحكمة وروية، وأن نستعد لمحاكمات ومرافعات قد تطول ولكنها تقطع الطريق على هؤلاء المعتدين، وتفضح عداوتهم لنا وتحاملهم علينا، وأنهم يتعاملون بمعايير مزدوجة، ويكيلون بمكيالين، ويفتقرون للنزاهة والمصداقية.

الثالثة: الفرقة والاختلاف من التحديات الخطيرة التي تواجه الأمة المسلمة أفراداً ومؤسسات، وهما من أكبر أسباب ضعف الأمة وفشلها، وذهاب ريحها وتآكل قوتها، وتسليط الأعداء عليها وطمعهم بها، كما قال ـ تعالى ـ: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

والاختلاف والتنازع أثر من آثار ضعف الإيمان ورقة الدين، وتقديم الهوى على الهدى، وإيثار الدنيا على الآخرة، وهو عقوبة إلهية لمن قصر في حقه تعالى أو حقوق عباده، قال - تعالى - : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) [الأنعام: ٦٥] وقال - تعالى - : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء)[المائدة: ١٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقاً على هذه الآية: "فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب.

وهذا التفريق الذي حصل من الأمة: علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها. وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله"([1])

ولهذا لما أمر الله - تعالى - عباده بالاعتصام بحبله، وذكرهم بنعمته عليهم بأن ألف بين قلوبهم وجمعهم على الأخوة فيه، أمرهم بالقيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يدل على أن القيام بأمر الله تعالى سبب الاجتماع والائتلاف. قال الله - تعالى - : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون o ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [آل عمران: ١٠٣- ١٠٤] ثم أعقب ذلك مباشرة بهذا النهي (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) [آل عمران: ١٠٥]، مما يدل على أن الإعراض عن طاعة الله هو سبب التفرق والاختلاف.

وقال ـ عز وجل ـ محذراً عباده: (ولا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون)، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: "سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بالسنين فأعطاني، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من

[1] الوصية الكبرى، ص: ١١٨.

غيرهم فأعطاني، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعني" رواه مسلم وأحمد وابن خزيمة والحاكم واللفظ له.

ومع كثرة النصوص الشرعية في الحث على الوحدة والائتلاف، والتحذير من الافتراق والاختلاف، واتفاق العقلاء على أن الاتحاد قوة، والفرقة ضعف وذلة، إلا أن المؤسسات الإسلامية في كثير من الدول الإسلامية، وفي بلاد الأقليات المسلمة تعاني من هذه المشكلة، بسبب الاختلافات العرقية والمذهبية، والعصبيات الحزبية، والأهواء والمطامع الشخصية، والجهل بمقاصد الشريعة الإسلامية.

ومؤسساتنا الخيرية في الداخل إن كانت ـ ولله الحمد ـ سلمت من هذه الاختلافات والتحزبات، فإنها مضطرة للتعامل مع من ابتلي بها في الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في الخارج.

وهذا يوجب على الجمعيات الخيرية والمؤسسات الدعوية أموراً ثلاثة:

الأول: الحرص على وحدة الصف واجتماع الكلمة، والتنسيق والتعاون فيما بينها، وأن يستفيد بعضها من خبرات بعض ومكتسباته، وأن تكون كالبناء الواحد يكمل بعضه بعضاً، وكاليدين تغسل إحداهما الأخرى. إن الواجب الشرعي، والمنطق العقلي يحتم على هذه الجمعيات الإسلامية ـ خصوصاً في ظل هذه الحملات الشرسة ـ أن تتعاون ولا تتطاحن، وتتكامل ولا تتآكل، وتتآلف ولا تتخالف، وتتطاوع ولا تتنازع.

الثاني: التواصل مع كل المسلمين، وتقديم النصح لهم، وتوعيتهم بواجب الاعتصام بحبل الله المتين، والاجتماع على الكتاب والسنة، والابتعاد عن البدع المحدثة، والعصبيات الحزبية والإقليمية والعرقية والمذهبية، التي تمزق شمل الأمة، وتورث الفتنة والفرقة، وتُعقب المهانة والذلة، مع العناية باللطف في المعاملة، وحسن المعاشرة، ودماثة الخلق، وسعة الأفق، وبعد النظر، والحوار البناء، والنقد الهادف، والأناة والرفق، والحلم والكرم، والتسلح بالحجة والبرهان، والحرص على التيسير ورفع الحرج، وتأليف القلوب وجمع الكلمة.

الثالث: وضع برامج علمية مصاحبة للمساعدات الإغاثية من أجل نشر العلم الشرعي المؤسس على الكتاب والسنة وفق فهم سلف الأمة، الذي هو الطريق الصحيح لتبصير المسلمين بحقيقة

دينهم، ودعوتهم على بصيرة وهدى، وإنقاذهم من براثن الجهل والضلالة، وحثهم على التزام التوحيد والسنة، وتحذيرهم من الشرك والبدعة، وبيان حقوق الأخوة الإسلامية، وتأكيد معنى الجسد الواحد، والأمة الواحدة، ووجوب التعاون بين المسلمين على البر والتقوى، واعتصامهم بالعروة الوثقى.

أما ما يتعلق بالمستفيدين من الجمعيات الخيرية، فهي ما يأتي:

الأولى: أن الأصل في المسلم المكلف أن يعمل ويكدح، ويجتهد في طلب الرزق، ويسعى لكفاية حاجته بنفسه، وبكده وجهده، حتى لا يكون عالة على الآخرين، ولا يضطر إلى تكففهم وسؤالهم، والتطلع إلى عونهم ومساعدتهم. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر - وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة -: (اليد العليا خير من اليد السفلى. واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة)([1]).

بل قال عليه الصلاة والسلام: (لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه)([2])، وقال أيضاً: (لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي([3]))([4])

---

[1] أخرجه البخاري في (كتاب الزكاة، باب لاصدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم: ١٤٢٩، ٤٤٢/١)، ومسلم في (كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن العليا هي المنفقة، وأن السفلى هي الآخذة، حديث رقم: ١٠٣٣، ٧١٧/٢).

[2] رواه البخاري من حديث الزبير بن العوام، في (كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم: ١٤٧١، ٤٥٦/١).
ورواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ولفظه: (والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً، فيسأله، أعطاه أو منعه)
(صحيح البخاري، الموضع السابق، حديث رقم: ١٤٧٠)
(صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، حديث رقم: ١٠٤٢، ٧٢١/٢).

[3] المرة بكسر الميم: هي القوة، والسوي: هو المستوي الخلق، التام الأعضاء.
انظر: شرح الزركشي على مختصر الخرقي ٤٤٣/٢، وشرح السيوطي على سنن النسائي ٩٩/٥.

[4] أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو في (كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، وحد الغنى، حديث رقم: ١٦٣٤، ٢٨٥/٢- ٢٨٦)، والترمذي في (كتاب الزكاة، باب ماجاء مَن لاتحل له الصدقة، حديث رقم: ٦٥٢، ٤٢/٣)

وهذا الحديث صريح في أنه لا حظّ للعاطلين والمتكاسلين في صدقات المسلمين، وذلك ليدفعهم إلى العمل والاكتساب الحلال.

وبين عليه الصلاة والسلام أن أفضل طعام يأكله ابن آدم، هو ماحصله بكد يمينه، وعرق جبينه، فقال: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)([1])

وقد حث الله تعالى على طلب الرزق، والضرب في مناكب الأرض لتحصيله وجمعه فقال: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[الملك: ١٥]، وقال تعالى: (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾[الإسراء: ١٢].

وقال تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[الجمعة: ١٠]

قال الشوكاني: <<﴿فانتشروا في الأرض) للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وابتغوا من فضل الله) أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب>>([2])

إن المسلم الحق هو الذي يمضي في طريق الكفاح، ويجتهد في ميادين العمل، ليحقق لنفسه وأسرته موارد العيش والحياة الكريمة، ولأمته سبيل التقدم والازدهار، فهو المسؤول عن كفاية نفسه وإغنائها قبل أن يُسأل عنه المجتمع، أو ترعاه الدولة، وخاصة إذا كان مفتول العضلات، قادراً على العمل، فإنه في هذه الحال ينبغي أن يكون الأداة الفعالة في خدمة الأسرة والمجتمع، وازدهار الحياة الاقتصادية، وتقدم البلاد الحضاري.

وأخرجه النسائي من حديث أبي هريرة في (كتاب الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها، حديث رقم: ٢٥٩٧، ٩٩/٥)، وابن ماجه في (كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، حديث رقم: ١٨٣٩، ٥٨٩/١). وللحديث طرق كثيرة، وشواهد عن جمع من الصحابة. وقد ذكرها وتكلم عن أسانيدها الزيلعي في "نصب الراية" ٣٩٩/٢- ٤٠١، والألباني في "إرواء الغليل" ٣٨١/٣- ٣٨٥، وحكم للحديث بالصحة.

[1] أخرجه البخاري في (كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم: ٢٠٧٢، ٨٠/٢).

[2] فتح القدير ٢٢٧/٥.

فلا يصح في دين الله أن يخلد الإنسان إلى الدعة والكسل، ويتقاعس عن العمل والتكسب، ويقعد عن السعي في طلب الرزق، ويكتفي بقول: اللهم ارزقني، اللهم ارزقني، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. ولا بد مع الدعاء من العمل وبذل الأسباب.([1])

ولا يجوز في شريعة الإسلام أن يمد المسلم يده إلى الناس ويسألهم الإحسان والصدقة، وهو يقدر على الكسب، ويجد سبُل العمل. ولهذا نجد أن الإسلام قدس العمل، وكرّم العمال، واعتبر كسب الرجل من يده من أحل المكاسب وأفضل الأعمال.([2])

الثانية: وكما حث الإسلام على العمل، فقد حذر من المسألة لغير حاجة، وشدد النكير والوعيد على من يتعاطونها، وليسوا من أهلها، إما لغناهم، أو لقدرتهم على العمل والكسب والاستغناء عن الناس.

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة جداً، أكتفي منها بثلاثة أحاديث فقط، وهي كالآتي:

١- حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تزال المسألة بأحدكم، حتى يلقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم ([3]))([4])

٢- حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من سأل الناس تكثراً ([5])، فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر)([6])

٣- حديث سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن المسألة كدّ ([1]) يكد بها الرجل وجهه، إلا أن يسأل سلطاناً، أو في أمر لابد منه) أخرجه الترمذي ([2])، وفي

---

[1] هذا هو أحد الأسباب التي يعتذر بها القاعدون عن العمل.

وقد ذكر جملة من هذا العوائق، وعالجها معالجة جيدة فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه "مشكلةالفقر وكيف عالجها الإسلام"، ص: ٤٠-٥٢.

[2] انظر: التكافل الاجتماعي لعبد الله علوان ص: ٣٨.

[3] قال ابن الأثير في "جامع الأصول" ١٠/١٤٤: << المزعة: قطعة من اللحم يسيرة، كالنتفة من الشيء >>.

[4] أخرجه البخاري في (كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، حديث رقم: ١٤٧٤، ١/٤٥٧)، ومسلم في (كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، حديث رقم: ١٠٤٠، ٢/٧٢٠).

[5] أي: ليكثر ماله، لا للحاجة.

[6] أخرجه مسلم في (كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، حديث رقم: ١٠٤١، ٢/٧٢٠).

رواية لأبي داود والنسائي[٣]: (إن المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء كدح وجهه، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان[٤]، أو شيئاً لا يجد منه بداً) وهذا لفظ النسائي.

وهذه الأحاديث كما أن فيها تحذيراً من المسألة، فإن فيها حثاً على الاستغناء عن الناس بالعمل والاكتساب المشروع.

[١] قال النووي في "رياض الصالحين" ص: ٢٣٦: << الكد: الخدش ونحوه>>.

[٢] في (كتاب الزكاة، باب ماجاء في النهي عن المسألة، حديث رقم: ٦٨١، ٦٥/٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال الأرناؤوط في تخريجه لجامع الأصول ١٤٥/١٠: <<هو كما قال>>.

[٣] أبو داود في (كتاب الزكاة، باب ماتجوز فيه المسألة، حديث رقم: ١٦٣٩، ٢٩٠/٢)، والنسائي في (كتاب الزكاة، باب مسألة الرجل ذا سلطان، حديث رقم: ٢٥٩٩، ١٠٠/٥).

[٤] قال الخطابي في " معالم السنن " ٢٣٧/٢: << هو أن يسأله حقه من بيت المال الذي في يده، وليس هذا على معنى استباحة الأموال التي تحويها أيدي بعض السلاطين عن غصب أملاك المسلمين>>. وذكر مثل هذا ابن الأثير في جامع الأصول ١٤٥/١٠.
وأما قوله: (كدوح يكدح بها الرجل وجهه) فالكدوح- كما قال ابن الأثير-: هي الخموش.

المبحث الأول

أهمية التواصل بين الجهات الخيرية والمجتمع

الإنسان مدني بالطبع، يحب الألفة والمؤانسة، والخلطة والمجالسة، ويطمئن بالقرب من الناس والاجتماع بهم، ويسعده محبة الناس له، وقبولهم إياه، وتقديرهم له. كما أنه يستوحش من الانفراد والوحدة، ويكره الانقطاع والعزلة، ويشعر بالغربة حين يبقى وحده ويبتعد عن الناس.

كما أنه مضطر وهو يسعى في تحصيل معاشه وتحقيق مصالحه إلى مخالطة الناس، والاستفادة من جهودهم، وتبادل المنافع معهم، والتفاعل مع من يحيطون به منهم.

كما أنه يعرض له من الحاجات، ويحل به من المصائب والآفات، ما يحتاج معه إلى عونهم ومساعدتهم، وغوثهم ومواساتهم، فإن الناس في هذه الدنيا ممتحنون، والمصائب تحيط بهم من كل جانب، وغِيَر الزمان كثيرة، والأيام قُلّب، ومن سرّه زمنٌ ساءته أزمان، والله تعالى يقول: (لقد خلقنا الإنسان في كبد)[البلد: ٤] والإنسان بمفرده أضعف من أن يصمد طويلاً أمام هذه الشدائد، ولئن صمد، فإنه يعاني من المشقة والجَهد، ماكان في غنىً عنه لو أن إخوانه التفتوا إليه، وحَدَبوا عليه، وهُرعوا لنجدته، وأعانوه في مشكلته، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

وقد صدق القائل:

ولابد من شكوى لذي مروؤة ooo يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

كما أن الإنسان يمر بمراحل لا يمكن أن يعيش فيها وحده، ولا يستطيع أن يقوم فيها بمصالح نفسه، فهو ينشأ أولاً في أحضان والديه طفلاً صغيراً محتاجاً إلى الرعاية والعناية، ، ثم يترعرع في كنف الأسرة مدة طويلة، حتى يستقيم عوده، ويصلب مراسه، ويصبح رجلاً قوياً يستطيع القيام بنفسه، والسعي في تحقيق مصالحه، وطلب رزقه.

فإن مدّ الله في عمره أدركته الشيخوخة، وأقعده الكبر، وعاد محتاجاً إلى كفالة غيره، كما كان محتاجاً لذلك في حال طفولته ونشأته، (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)[الحج: ٥].

وقد يعضّه الزمان بنابه، وينوء عليه بكلكله([1])، فيحتاج إلى كفالة غيره، وهو لا يزال في زهرة شبابه، وفي وقت مبكر من سني حياته، كما هي حال بعض المرضى والمعوقين والمقعدين.
يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: <<لم تزل فكرة التآلف والتناصر، تخامر عقول البشر، من عهد نشأته في هذه الأرض، من حيث مافي طبعه من اتساع المطمع، وقلة المقدرة، فلذلك كان بطبعه محتاجاً إلى إسعاف بعضه بعضاً بمكملات مايعجز عن نواله من جلب الملائم، ودفع المؤلم. وبذلك كان مدنياً بالطبع، أي: محتاجاً إلى التجمع والتحبب، للتمكن من الاستنجاد عند احتياجه إلى النوال، أو الدفاع.

وعن تلك الفكرة نشأ نظام العائلة، وهو جامعة صغيرة تتفرع عن النسب الفردي. ثم نظام الصهر والخئولة. ثم نظام القبيلة، وهو جامعة واسعة تتفرع عن النسب البعيد، وعن الموطن. ثم نظام الأمة، وهو جامعة كبيرة تتفرع عن النسب البعيد الجامع، وعن الموطن، وعن اللغة...>>([2])

ولقد جرت سنة الله تبارك وتعالى واقتضت حكمته ورحمته: أن يرفع بعض الخلق فوق بعض درجات، وأن يفاوت بينهم في الرزق، وفي المواهب والقدرات، وفي سائر القوى الظاهرة والباطنة، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، فتستقيم حياتهم، وتتحقق مصالحهم، ويتم التواصل والتفاعل بينهم. كما قال تعالى: (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾[الزخرف: ٣٢].

فالناس كلهم على اختلاف طبقاتهم مسخرون لخدمة بعضهم بعضاً، لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة، وذكي وغبي، وعالم وعامي، وفقير وغني، وعربي وعجمي، وأمير ومأمور، وصغير وكبير، فكل البشر مهما علت مراتبهم، وشرفت وظائفهم فإنهم مسخرون لخدمة غيرهم، وغيرهم مسخر لخدمتهم، وبعضهم محتاج لبعض، في كل وضع، وفي كل ظرف.

---

[1] الكَلْكَل: هو الصدر من كل شيء. انظر: معجم مقاييس اللغة ١٢٢/٥، ولسان العرب ٥٩٦/١١، والقاموس المحيط، ص: ١٣٦٢. قال ابن منظور: <<وقد يستعار "الكلكل "لما ليس بجسم... قالت أعرابية ترثي ابنها :
ألقى عليه الدهر كلكله ❖ ❖ ❖ من ذا يقوم بكلكل الدهرِ؟ فجعلت للدهر كلكلاً>> لسان العرب ٥٩٧/١١.
[2] أصول النظام الاجتماعي ص: ١٠٤.

ولو كان الناس كلهم على درجة واحدة من الغنى والقوة والذكاء وسائر القدرات والمواهب، لما استطاعوا أن يخدم بعضهم بعضاً.

يقول الإمام الرازي في تفسيره للآية السابقة: <<إنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلاهة، والشهرة والخمول، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم في كل هذا الأحوال لم يخدم أحد أحداً، ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا>>([1])

وقال الآلوسي في قوله تعالى (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾: <<ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا، ويصلوا إلى مرافقهم. لا لكمال في الموسّع عليه، ولا لنقص في المقتّر عليه>>([2])

فطبيعة الحياة إذاً قائمة على أساس التفاوت بين الناس في مواهبهم وقدراتهم، وفي معايشهم وأرزاقهم، وفي أمزجتهم ورغباتهم، وفيما يمكن أن يقوم به كل فرد منهم، ولولا ذلك لما أمكن أن تقوم الحياة في هذا الأرض بهذه الصورة، ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد من يشغلها ويقوم بها.([3])

ولكن الله برحمته سخر هؤلاء الخلق بعضهم لبعض، وجعل كل واحد منهم خادماً لغيره، شعر بذلك أم لم يشعر. ولله درّ القائل:

الناس للناس من بدو ومن حضر ooo بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

وبهذا ندرك أهمية التواصل الاجتماعي، وعظم الحاجة إليه، وأنه مطلب ضروري وحاجة إنسانية لا غنى للناس عنها، فإن سعادتهم لا تتحقق، ولا تتم لهم مصالحهم، وينتظم معاشهم، إلا بالتعاون والتكافل فيما بينهم.

وكلما كان المجتمع أكثر تكافلاً وتواصلاً، وتراحماً وتعاوناً، كان أكثر سعادة وأمناً، ورخاءً واستقراراً.

---

[1] التفسير الكبير ٢٧/٢١٠- ٢١١. وانظر نحوه في: تفسير ابن كثير ٧/٢١٣، وفتح القدير ٤/٥٥٤، وأضواء البيان ٧/٢٤٣

[2] روح المعاني ٢٥/٧٨. وهو موجود بنصه تقريباً في تفسير "أبي السعود" ٨/٤٦.

[3] انظر: في ظلال القرآن ٥/٣١٨٧، وتفسير السعدي ٤/٤٤٥.

المبحث الثاني

مشروعية التواصل بين الجهات الخيرية والمجتمع

الدين الإسلامي هو دين التواصل والتكافل الاجتماعي بمعناه الواسع الشامل.

فالتواصل والتكافل الاجتماعي مبدأ أصيل من مباديء هذا الدين، وهو سمة من أهم سمات المجتمع المسلم، بل لا يمكن أن يكون المجتمع مسلماً حقاً إلا إذا كان متواصلاً متكافلاً، متآلفاً متكاتفاً.([1])

ولم يكتف الإسلام بالحث على التواصل والتكافل الاجتماعي، والتنويه بشأنه، والثناء على أهله، بل شرع لتحقيقه أحكاماً كثيرة، وتشريعات عديدة، منها ماهو حتم واجب الأداء، ومنها ماهو مستحب مرغّب فيه.

ولو لم يأت دليل خاص على مشروعية التواصل والتكافل الاجتماعي والأمر به، لكانت التشريعات والأحكام التكليفية، كافية في الدلالة على مشروعيته، وعظيم مكانته من دين الإسلام.

كيف والقرآن والسنة مليئان بالنصوص التي تأمر بالتكافل والتواصل، وتحض عليهما، وتجعلهما من أخص أوصاف المؤمنين؟!

كما دل على مشروعية التواصل والتكافل الاجتماعي، إجماع الأمة، والمعقول الصريح.

وإليك بيان هذه الأدلة:

أولاً: الأدلة من القرآن.

١ـ قول الله تبارك وتعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)[آل عمران: ١٠٣]، وقوله: (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ٥ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ماألفت بين قلوبهم

[1] انظر: التكافل الاجتماعي في الفقه الإسلامي للدكتور: عبدالله الطيار، ص: ٢٧

ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[الأنفال: ٦٣،٦٢]، وقوله: (إنما المؤمنون إخوة)[الحجرات: ١٠].

فالأخوة الإسلامية مظهر من أهم مظاهر التواصل والتكافل الاجتماعي، وهذه الآيات وما في معناها تؤكد تلك الأخوة بين المؤمنين، وتذكرهم بمنة الله عليهم أن جعلهم إخوة متحابين، متآلفين متعاونين، متواصلين متراحمين.

والآية الأخيرة تدل على أن الأخوة والإيمان قرينان متلازمان، فلا أخوة صادقةً بلا إيمان، ولا إيمان حقيقياً بلا شعور بالأخوة وقيام بحقوقها. فالتآخي بين المومنين ومحبة بعضهم لبعض شرط لصحة الإيمان وكماله الواجب، وهي من لوازم محبة الله تعالى ، كما قال ربنا سبحانه: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون O ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[المائدة: ٥٥، ٥٦].

فهي أخوة تنبثق من عقيدة المسلم، وهي ثمرة من ثمرات إيمانه. وكلما كان الإنسان أكثر إيماناً كان أكثر شعوراً بهذه الأخوة، وقياماً بحقوقها: من محبة المسلمين، والرحمة بهم، والحدب عليهم، والتواصل معهم، والنصح لهم، والاهتمام بشأنهم، ومشاركتهم في آلامهم وآمالهم، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: (أشداء على الكفار رحماء بينهم)[الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [المائدة: ٤٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فقد أخبر ـ سبحانه ـ أن ولي المؤمن هو الله ورسوله وعباده المؤمنون. وهذا عام في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة، سواء كان من أهل نسبه، أو بلده، أو مذهبه، أو طريقته، أو لم يكن"([1])

وقال أيضًا: "فمن كان قائمًا بواجب الإيمان كان أخًا لكل مؤمن، ووجب على كل مؤمن أن يقوم بحقوقه، وإن لم يجر بينهما عقد خاص، فإن الله ورسوله قد عقدا الأخوة بينهما بقوله﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ [الحجرات ١٠]"([1])

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية: ٤١٨/٣.

وقال: "والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله، فيحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله.

ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات، وما يعادى عليه من سيئات، عومل بموجب ذلك، كفساق أهل الملة، إذ هم مستحقون للثواب والعقاب، والموالاة والمعاداة، والحب والبغض، بحسب ما فيهم من البر والفجور، فإن ﴿من يعمل مثقال ذرة خيراً يره O ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[الزلزلة: ٧، ٨]>>[٢]

٢. قوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)[المائدة: ٢]

ففي هذا الآية أمر صريح بوجوب التعاون بين المؤمنين على البر والتقوى، وفيها تحريم لما يضاد ذلك من التعاون على الإثم والعدوان.

والبر: اسم جامع لكل خير قولي أو فعلي، متعلقٍ بحقوق الله أو بحقوق الآدميين. والإثم: ضد ذلك.

فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين بأن يتعاونوا على كل ما فيه خير لهم في دينهم ودنياهم، وأن يبتعدوا عن كل ما فيه شر لهم، وضرر عليهم في دينهم ودنياهم.[٣]

قال القرطبي: "قال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبرّ، وقَرَنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس. ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس، فقد تمت سعادته، وعمّت نعمته"[٤]

وقال السعدي: "(وتعاونوا على البر والتقوى) أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

---

[١] المصدر السابق: ٩٤/٣٥.

[٢] مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٤/٣٥.

[٣] انظر تفسير ابن كثير ١٠/٣، وزاد المسير ٢٧٧/٢.

[٤] الجامع لأحكام القرآن ٤٧/٦

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة.

وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها.. فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك...

وكل معصية وظلم، يجب على العبد كفّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه"[1]

وللتعاون على البر والتقوى صور كثيرة، ووجوه متعددة: فالعالم يعين الناس بعلمه، وصاحب الرأي يعينهم برأيه، والغني يعينهم بماله، والشجاع بشجاعته، والطبيب بطبه، والصانع بصناعته، وكل في مجال تخصصه، وفي حدود طاقته وقدرته.

وبهذا يصبح المسلمون متواصلين متراحمين، متعاونين متكاتفين، يشد بعضهم أزر بعض، ويكمل بعضهم نقص بعض. كما أراد الله لهم أن يكونوا.[2]

٣. قوله تعالى: (فلا اقتحم العقبة ۝ وما أدراك ما العقبة ۝ فك رقبة ۝ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ۝ يتيماً ذامقربة ۝ أو مسكيناً ذا متربة ۝ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ۝ أولئك أصحاب الميمنة﴾[البلد: ١١- ١٨]

فهذه الآيات صريحة فيما ينبغي أن يكون عليه عباد الله من الحرص على نفع الناس، وإيصال الخير إليهم، والنصح لهم، والشفقة عليهم، والرحمة بهم، ومشاركتهم في آلامهم وأحزانهم.

يقول العلامة الشوكاني في معرض تفسيره لهذه الآيات: "العقبة في الأصل، هي الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها. وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة.وقوله (وما أدراك ما العقبة) أي: أيّ شيء أعلمك ما اقتحامها؟ (فك رقبة) أي: هي إعتاق رقبة، وتخليصها من أسار الرق.

(أو إطعام في يوم ذي مسغبة)المسغبة: المجاعة، (يتيماً ذا مقربة) أي: قرابة (أو مسكيناً ذا متربة) أي: لا شيء له، كأنه لصق بالتراب لفقره، (ثم كان من الذين آمنوا) وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان، وقيل المعنى: أنه أتى بهذه القرب لوجه الله. (وتواصوا بالصبر) أي:

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٤٥٢/١- ٤٥٣

[2] انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤٧/٦

أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب. (وتواصوا بالمرحمة) أي: بالرحمة على عباد الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها"([1])

٤. ما ورد من الآيات التي تحث على بذل المعروف للناس، والإحسان إليهم مادياً ومعنوياً، وهي كثيرة جداً، ومنها قوله تعالى: (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[البقرة: ١٧٧].

وقوله: (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالاً فخوراً ٥ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾[النساء: ٣٦، ٣٧].

فالآية عامة في جميع المذكورين، من المسلمين والكافرين، والصالحين والفاسقين، والقريبين والبعيدين. فكلهم يشرع الإحسان إليهم والتواصل معهم، وإن كان حق المسلم أعظم من حق الكافر، وحق القريب آكد من حق البعيد، لكن كل له من البر والإحسان بحسب قربه ومنزلته، وعلى قدر حاجته وما يناسبه.

وعلى هذا تواطأت رسالات السماء، وأوصت به جميع الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة ٨٣]. أي: أخذ الميثاق عليهم على ألسنة أنبيائهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يحسنوا إلى الوالدين والأرحام واليتامى والمساكين، بكل قول جميل، وفعل جميل، ثم أمر بالإحسان إلى الناس عمومًا، فقال: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي: قولاً حسنًا، لطيفًا رفيقًا، طيبًا مفيدًا. وهذا عام في القريب

[1] فتح القدير ٥/٤٤٤- ٤٤٥.

والبعيد، والبر والفاجر، والمسلم والكافر، إلا أن يكون محاربًا، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾الممتحنة ٨.

ثانياً: الأدلة من السنة.

لقد حفلت السنة النبوية بأحاديث كثيرة جداً، تدل على ضرورة التواصل والتكافل بين المسلمين، ومن ذلك ما يأتي:

١ـ قوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً. ثم شبّك بين أصابعه)([1])

جاء في "دليل الفالحين"([2]) نقلاً عن القرطبي أنه قال: "هذا تمثيل يفيد الحض على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه، فإن البناء لايتم ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضاً ويقوّيه، وإن لم يكن ذلك انحلت أجزاؤه وخرب بناؤه. وكذا المؤمن لايستقل بأمر دنياه ودينه إلا بمعاونة أخيه ومعاضدته ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه، وعن مقاومة مضاده، فحينئذ لايتم له نظام دنيا ولا دين، ويلحق بالهالكين".

٢ـ قوله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)([3]) وفي رواية لمسلم: (المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينُه اشتكى كلّه، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)([4]).

---

[1] أخرجه البخاري في (كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، حديث رقم: ٦٠٢٦، ٩٦/٤)، ومسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٥، ١٩٩٩/٤)

[2] ٤/٢.

[3] أخرجه البخاري في (كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم: ٦٠١١، ٩٣/٤)، ومسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦، ١٩٩٩/٤- ٢٠٠٠) واللفظ له.

[4] أخرجه مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦، ٢٠٠٠/٤).
وقد ورد الحديث في الصحيحين بلفظ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد...) الحديث، وقد سبق تخريجه ص: ٣٨٧.

فهذا تعبير بديع، وتصوير أخاذ لما يجب أن يكون عليه المسلمون من المحبة والتواصل، والتعاطف والتكافل، حتى كأنهم جسد واحد، إن اشتكى منه عضو تألم له سائر الجسد، وتداعى لمواساته ونصرته.

٣. قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)([1])

وهذا من أبلغ الأدلة على وجوب التواصل والتكافل بين المسلمين، حيث دل الحديث على أن كمال الإيمان الواجب، لا يتم إلا بأن يحب المسلم لإخوانه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

قال النووي: "هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه"([2])

٤. قوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)([3])

---

[1] أخرجه البخاري في (كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه مايحب لنفسه، حديث رقم: ١٣، ١/ ٢١)، ومسلم في (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان: أن يحب لأخيه المسلم مايحب لنفسه من الخير، حديث رقم: ٤٥، ١/ ٦٧- ٦٨). قال ابن حجر في فتح الباري ١/ ٥٧ : "وللإسماعيلي من طريق روح عن حسين (حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير) فبين المراد بالأخوة، وعين جهة الحب. وزاد مسلم في أوله عن أبي خيثمة عن يحي القطان : (والذي نفسي بيده)".

ثم نقل عن الكرماني قوله : "ومن الإيمان - أيضاً - أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، ولم يذكره لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء". وقد جاء في سبل السلام ٤/ ١٥٣٩ نقلاً عن ابن الصلاح قوله تعليقاً على هذا الحديث: "وهذا قد يعد من الصعب الممتنع، وليس كذلك، إذ معناه : لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه في الإسلام ما يحب لنفسه من الخير. والقيام بذلك يحصل بأن يحب له مثل حصول ذلك من جهة لا يزاحمه فيها، بحيث لا تنقص النعمة على أخيه، شيئاً من النعمة عليه. وذلك سهل على القلب السليم، وإنما يعسر على القلب الدغل. عافانا الله وإخواننا أجمعين". وذكر نحوه ابن حجر في فتح الباري" ١/ ٥٧- ٥٨.

[2] شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١٣٩

[3] أخرجه البخاري في (كتاب المظالم، باب لايظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٤٤٢، ٢/ ١٩٠)، ومسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠، ٤/ ١٩٩٦)

وقوله: (ولا يسمله) معناه: لا يسلمه لعدو يؤذيه، ولا يدعه على حال تضره وترديه، بل يدافع عنه ويناصحه، ويعينه على ماينفعه، ولا يترك نصرته ومواساته في موضع يحتاج فيه إلى النصرة والمواساة.

قال ابن حزم: "من تركه يجوع ويعرى - وهو قادر على إطعامه وكسوته - فقد أسلمه"[1]

ثالثاً: الإجماع.

التواصل والتكافل بين المسلمين، أمر أطبقت الأمة على مشروعيته، بل هو من الإجماع العملي الذي تناقلته الأمة وطبقته في واقع حياتها جيلاً بعد جيل، ولم تنفك عنه في عصر من العصور.

ولئن كان هذا التكافل أظهر وأشمل في القرون الأولى المفضلة فإن الأمة لم تنفك عنه حتى في أشد مراحل انحرافها، وأقصى درجات انحطاطها وبعدها عن دينها.

وفي هذا الزمن الذي بلغ فيه انحراف الأمة مدىً بعيداً، لا تزال الأمة الإسلامية سبّاقة في هذا الميدان، والتواصل والتكافل بين أفرادها من أهم ما يميز مجتمعاتها عن المجتمعات غير المسلمة.

ولا أدل على هذا الإجماع، من اتفاق الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب التآخي والتوادد بين المسلمين، والقيام بإغاثة الملهوفين، وتنفيس كرب المكروبين، ومد يد العون للفقراء والمحتاجين، ورعاية الأيتام والأرامل والمساكين، ومناصرة المظلومين وردع الظالمين. إلى غير ذلك من صور التكافل، ووجوه التعاون والتراحم. وأخبارهم وآثارهم في هذا الباب كثيرة مشهورة.

ولعل أوضح مثال على ذلك ما حدث بعد الهجرة النبوية من مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاةً وصلت إلى حد التوارث فيما بينهم، كأنهم إخوة في النسب، فكان المهاجري يرث أخاه الأنصاري، والعكس، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) [الأنفال: ٧٥، والأحزاب: ٦]، فصاروا يتوارثون بالقرابة[2].

[1] المحلى ٦/١٥٦- ١٥٩.

[2] انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/٩٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/٤٣، والجامع لأحكام القرآن ١٤/١٢٤.

وكان الأنصاري يبذل ماله بطواعية وطيب نفس لأخيه المهاجري، بل ويؤثره على نفسه، ولو كان به خصاصة، وقد مدحهم الله تعالى بذلك في قوله: (والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر: ٩].

ويدل لهذا الإجماع أيضاً: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له، ومن كان له فضلٌ من زاد فليعد به على من لا زاد له) قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.([1])

قال ابن حزم: "وهذا إجماع الصحابة رضي الله عنهم يخبر بذلك أبو سعيد. وبكل ما في هذا الخبر نقول... وقال علي بن أبي طالب: (إن الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا، فبمنع الأغنياء. وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة، ويعذبهم عليه)"

ثم ذكر رحمه الله آثاراً عديدة عن الصحابة في هذا، وقال: "فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضي الله عنهم لا مخالف لهم منهم"([2])

وإذا كان العلماء قد اختلفوا في وجوب حقوق أخرى سوى الزكاة في المال، فإن هناك حقوقاً خارجة عن محل النزاع، وهي محل إجماع بين العلماء. ومنها إغاثة المضطر، وسد حاجته من القوت، والكساء، والمأوى.

قال أبو بكر الجصاص : "وفي المال حق سوى الزكاة باتفاق المسلمين. منه ما يلزم من النفقة على والديه إذا كانا فقيرين، وعلى ذوي أرحامه، وما يلزم من إطعام المضطر، وحمل المنقَطَع به، وما جرى مجرى ذلك من الحقوق اللازمة، عندما يعرض من هذه الأحوال"([3])

[1] أخرجه مسلم في (كتاب اللقطة، باب استحباب المؤاساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨، ٣/١٣٥٤).
[2] المحلى ٦/١٥٦- ١٥٩.
[3] أحكام القرآن ٣/٤١٢.

وقال ابن تيمية : "وأما الزكاة، فإنها تجب حقاً لله في ماله. ولهذا يقال : ليس في المال حق سوى الزكاة، أي : ليس فيه حق يجب بسبب المال سوى الزكاة، وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال، كما تجب النفقات للأقارب، والزوجة، والرقيق، والبهائم. ويجب حمل العاقلة. ويجب قضاء الديون. ويجب الإعطاء في النائبة. ويجب إطعام الجائع، وكسوة العاري، فرضاً على الكفاية. إلى غير ذلك من الواجبات المالية. لكن بسبب عارض، والمال شرط وجوبها"([1])

وبهذا نعلم أن طبيعة النظام الإسلامي تفرض على المجتمع المسلم أن يكون متعاوناً متضامناً، قائماً على التواصل والتكافل والمواساة، فالقوي يحمل الضعيف، والغني يأخذ بيد الفقير، والقريب يصل قرابته، والجار يحسن إلى جاره.

ويدل لهذا الإجماع أيضاً: ما رواه الإمام أحمد عن مالك بن أوس قال: (كان عمر يحلف على أيمان ثلاث يقول: والله ما أحدٌ أحقّ بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد. ووالله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبداً مملوكاً، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقَسْمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقَدَمه في الإسلام، والرجل وغَناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته.ووالله لئن بقيت لهم، ليأتين الراعيَ بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو يرعى مكانه"([2])([3])

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية ٣١٦/٧.

وانظر لمزيد من التفصيل في هذه المسألة، وهي : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ انظر : فقه الزكاة للقرضاوي ٩٦٣/٢- ٩٩٢، والزكاة وتطبيقاتها المعاصرة للطيار ص: ١٤١- ١٤٨، والإسلام والضمان الاجتماعي للفنجري ص: ٩٠- ٩٤، والتكافل الاجتماعي لعلوان ص: ٩٠- ٩٣.

[2] قال الشوكاني في "نيل الأوطار" ٣٣٤/٩: قوله (وما أنا أحق به من أحد) فيه دليل على أن الإمام كسائر الناس، لا فضل له على غيره في تقديم ولا توفير نصيب. وقوله: (لئن بقيت لأوتين الراعي) فيه مبالغة حسنة، لأن الراعي الساكن في جبل منقطع عن الحي في مكان بعيد، إذا نال نصيبه، فبالأولى أن يناله القريب من المتولي للقسمة، ومن كان معروفاً من الناس ومخالطاً لهم. ا.هـ

فكل إنسان في ظل دولة الإسلام مكفول حقه، ومقضية حاجته، مهما بعد مكانه، وصغر شأنه.

وانظر مزيد بيان لهذا في كتاب "مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام" ص: ١١٠.

[3] المسند بتحقيق أحمد شاكر في (٢٨١/١- ٢٨٢). قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

هكذا كان يقول عمر رضي الله عنه من غير أن ينكر عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم فكان هذا إجماعاً منهم.([1])

بل لقد قال عمر بعدما أغيث الناس عام الرمادة وكان عام قحط وجدب شديدين([2]): (والله لو أن الله ما يفرجها ما تركت بأهل بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت معهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على مايقيم واحداً)([3])

وقد ذكر ابن الجوزي أيضاً([4]): (أن عمر بن الخطاب أخذ أربعمائة دينار، فجعلها في صرة، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلهّ في البيت ساعة حتى تنظر مايصنع. فذهب الغلام وقال: يقول لك أمير المؤمنين، اجعل هذه في بعض حاجاتك. فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي ياجارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد عدّ مثلها إلى معاذ بن جبل فقال: اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل، وتلهّ في البيت ساعة حتى تنظر مايصنع. فذهب بها إليه.

قال يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجاتك. قال: رحمه الله ووصله، تعالي ياجارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، واذهبي إلى بيت فلان بكذا. فانطلقت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة شيء إلا دينارين، فرمى بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرّ عمر بذلك، وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض).

---

[1] انظر: المجتمع المتكافل في الإسلام ص: ٦٣، والتكافل الاجتماعي لعلوان، ص: ١٨، والتكافل الاجتماعي للطيار، ص: ٣٠.

[2] قال ابن كثير في البداية والنهاية ٧/٩٠- ٩١: "كان في عام الرمادة جدب عمّ أرض الحجاز، وجاع الناس جوعاً شديداً، وسميت عام الرمادة، لأن الأرض اسودت من قلة المطر حتى عاد لونها بيهاً بالرماد. وقيل: لأنها تسفي الريح تراباً كالرماد. ويمكن أن تكون سميت لكل منهما، والله أعلم... واستمر هذا الحال في الناس تسعة أشهر، ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة"، ثم نقل عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك أنه قال: "كان عام الرمادة في آخر سنة سبع عشرة، وأول سنة ثماني عشرة، أصاب المدينة وما حولها جوع فهلك كثير من الناس".

[3] تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص: ٨٨.

[4] المصدر السابق ص: ٩١.

رابعاً: المعقول:

أما الدليل العقلي على مشروعية التواصل والتكافل، فهو ما سبق بيانه من أهمية التواصل والتكافل، واضطرار الناس إليه، وأن صلاح أمورهم، واستقامة أحوالهم، وتحقق أمنهم وسعادتهم، متوقف على التعاون والتكافل فيما بينهم، وإلا استحالت حياتهم إلى جحيم لا يطاق، وأنانية لا تحتمل، وأثرة تقطع حبال المودة والصلة بينهم، فيحصل التعادي فيما بينهم، وتنتشر الجرائم والمنكرات، ويحلّ الشقاق والنزاع والخصومات محل الألفة والمحبة والموالاة. وهذا مؤذن بخراب المجتمع، وتصدع بنائه، وتلاشي قوته، وذهاب ريحه وضياع هيبته.([1])

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "والتكافل الاجتماعي في مغزاه ومؤداه: أن يحس كل واحد في المجتمع بأن عليه واجبات لهذا المجتمع يجب عليه أداؤها، وأنه إن تقاصر في أدائها، فقد يؤدي ذلك إلى انهيار البناء عليه وعلى غيره.

وأن للفرد حقوقاً في هذا المجتمع يجب على القوّامين عليه أن يعطوا كل ذي حق حقه من غير تقصير ولا إهمال، وأن يدفع الضرر عن الضعفاء، ويسد خلل العاجزين، وأنه إن لم يكن ذلك تآكلت لبنات البناء، ولا بد أن يخرّ منهاراً بعد حين"([2])

إن توفر التواصل والتكافل بين أفراد المجتمع، ومشاركة كل منهم للآخر في آماله وآلامه من شأنه أن يثمر الراحة النفسية، والطمأنينة القلبية، ويضاعف من نشاط الفرد، ويشيع جواً من الثقة والأمن بين أفراد المجتمع، ويؤكد فيهم الشعور بالجسد الواحد، ويوثق الصلة بينهم، ويجعلهم إخوةً متحابين، متعاونين متكاتفين، يسعى بعضهم في مصلحة بعض، ويدافع بعضهم عن بعض، ويحب كل واحد منهم لإخوانه ما يحب لنفسه، ويكره لهم مايكره لنفسه.

أما حين تسيطر الأثرة في المجتمع، وتستحكم الأنانيات، ويسود حب الذوات، ويعيش الإنسان لنفسه، غير مبالٍ بمن حوله، ولا مهتم بشأنه، ولا مكترث بحاله، ولا قائم بما يجب عليه تجاهه... فحينئذ يحل الشقاء، ويحيق البلاء، وتسيطر العداوة والبغضاء، والحسد والشحناء،

---

[1] انظر: المجتمع المتكافل في الإسلام، ص: ٦٣.

[2] التكافل الاجتماعي لأبي زهرة، ص: ٧.

وتكثر الفتن والإحن، وينتشر الفساد والجرائم، وتقع الآفات القاتلة، والزلازل المدمرة، ويصبح المحروم منهم ناقماً على مجتمعه، متربصاً به، مهدداً لأمنه ومصالحه، فيشقى بنفسه ويُشقي من حوله.

ومن هنا ندرك أهمية التواصل، وشدة حاجة الإنسان إليه، وأثره في تحقيق الأمن والاستقرار للفرد والمجتمع.

المبحث الرابع

أثر الدافع الإيماني في تحقيق التواصل بين الجهات الخيرية والمجتمع

التواصل الاجتماعي، والتكافل المادي ليس تشريعاً مفروضاً على القادرين، لا يجد في ذواتهم تجاوباً نفسياً، واندفاعاً ذاتياً، بل هو ثمرة طبيعية، ونتيجة تلقائية، وأثر إيجابي لتلك الروابط الروحية، والمعاني الإنسانية النبيلة التي تنبع من ذوات الأفراد، وتشعرهم بواجبهم تجاه إخوانهم، وعظيم حقهم عليهم، فيسعون بطيب نفس، وانشراح صدر لقضاء حاجاتهم، وسدّ خلاتهم، وتفريج كرباتهم، وإغاثة لهفاتهم، والتيسير على معسرهم، وإعانة عاجزهم، وتوفير حوائجهم المادية، من غذاء وكساء، ودواء ومأوى.

فالتواصل والتكافل بين المسلمين واجب شرعي، وعبادة جليلة، وحق من حقوق الأخوة الدينية التي يتميز بها أفراد المجتمع المسلم، وهو نتيجة طبيعية لتلك المشاعر التي يكنها بعضهم لبعض، والتي عبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1] وقوله: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله)[2] فهو لا يسلمه لا لعدو، ولا لمرض، ولا لجوع. ولا يخذله في أي موطن يحتاج فيه إليه.

فعزيز على النفس المؤمنة الكريمة أن ترى مصاباً قد حلت بساحته البلايا، وأناخت بداره المصائب، أو تشاهد مسكيناً قد أثقل الفقره ممشاه، وأبلى ثيابه، وأحفى قدميه، وأجرى الدمع من عينيه، أو تبصر يتيماً أو أرملة قد فقدا حنان المعيل، وذاقا لوعة الفراق، واحتاجا إلى تكفف الناس، وسؤال الأباعد، أو مديناً يعاني الذلة بالنهار، والهم بالليل... عزيز على النفس المؤمنة الكريمة أن ترى هؤلاء المنكوبين ثم لا ترأف بحالهم، وترحم ضعفهم، وتهب لمساعدتهم، ومد يد العون لهم. ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لاتنزع الرحمة إلا من شقي) رواه الترمذي، وغيره، وهو حديث حسن. وفي الصحيحين مرفوعاً: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)،

---

[1] تقدم تخريجه ص:

[2] رواه مسلم: ٢٥٦٤.

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

يقول الدكتور فتحي الدريني: "ولذا وضع الإسلام إلى جانب التشريعات والمؤيدات التي تضمن تحقيق التكافل عن طريق قيام الأفراد بواجباتهم، التوجيهات الدينية التي تخاطب ضمير الفرد، وتثير أنبل المشاعر الإنسانية فيه، ليقبل على التكافل مدفوعاً بإيمانه به.

فالتكافل الاجتماعي في الإسلام يجب أن ينبع من ذوات الأفراد، شعوراً نفسياً أولاً، أو ترابطاً روحياً عميقاً مدركاً، قبل أن يترجم إلى آثار إيجابية ظاهرة"[1]

ولقد عمل الإسلام على تهذيب نفوس المؤمنين، وتزكيتها من الشح والبخل، والأثرة والأنانية، وتربيتها على البذل والعطاء، والجود والكرم، ابتغاء وجه الله، وطلباً لثوابه ورضاه.

فكان في المؤمنين من يعطي أكثر مما يطلب منه، وينفق أكثر مما يجب عليه، بل يعطي بغير طلب ولا سؤال، وينفق في السراء والضراء، وبالليل والنهار، سراً وعلانية، ويحب للناس ما يحب لنفسه، بل ويؤثرهم على نفسه ولو كان به خصاصة، فيفيض قلبه بالخير فيضاً، ويبسط يده بالبذل بسطاً، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وقد عني الإسلام بهذا الجانب الخلقي الرفيع، لأنه وسيلة لتحقيق التكافل والتواصل بين الناس، ولأنه قبل ذلك وسيلة لتهذيب النفوس، وتأهيلها للفوز برضوان الله تعالى وجنته.[2]

ولهذا فإن الغني يخرج الزكاة والصدقات بنفس راضية، وصدر منشرح، ويدفعها إلى مستحقيها، وهو مغتبط مسرور، يشعر أنها حق لهم، وأن لهم فضلاً عليه، حيث تقبلوها منه، وأعانوه على تزكية نفسه وماله. هذا هو شعور المؤمن الصادق، وهو يدفع ماله للمحتاجين، ويصرفه في مصالح المسلمين.

[1] التكافل الاجتماعي في الإسلام، بحث نشر في مجلة "حضارة الإسلام" عدد: ٣- ٤، عام ١٣٨٧، ص: ٤٢.

[2] انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ص: ١٢٩. والعدالة الاجتماعية في الإسلام ص: ٦٦.

أما الفقير الذي يدفع إليه المال فيشعر بأنه عضو حي في المجتمع، له قيمته وقدره، ومكانته واعتباره، وأن مجتمعه يهتم به ويرعاه، ويعترف بحقوقه عليه، ويقدم له ما يحتاجه في صورة كريمة، لا منّ فيها ولا أذى.

وقد حذر الله تعالى من إهانة الفقير، والنيل من عزته، وجرح كرامته بما يفهم منه الاستعلاء عليه، والامتنان بما يدفع إليه، فقال جل وعلا: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون o قولٌ معروفٌ ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم o يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾[البقرة: ٢٦٢- ٢٦٤].

قال سيد قطب: "والمن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس واطٍ. فالنفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو رغبة في إذلال الآخذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجه إذاً للناس لا لله بالعطاء.

وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن.

فالمن من ثم يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء.

أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة في رؤية أخيه ذليلاً له، كسيراً لديه، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله.

وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام.

وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة، وملء البطن، وتلافي الحاجة. كلا إنما أراده تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطي، واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير..، وتذكيراً له بنعمة الله عليه، وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير سرف ولا مخيلة، وأن ينفق منها في سبيل الله في غير منع ولا منّ. فإذا أعطى من ماله شيئاً فإنما من مال الله أعطى، وإذا

أسلف حسنة، فإنما هي قرض لله يضاعفه له أضعافاً كثيرة. وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسبباً لينال المعطي الواهب أضعاف ماأعطى من مال الله.

كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ، وتوثيقاً لصلته بأخيه..، وسداً لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون يذكّرها بوحدة قوامها، ووحدة حياتها، ووحدة اتجاهها، ووحدة تكاليفها.

والمنّ يذهب بهذا كله، ويحيل الإنفاق سماً وناراً. فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان، هو أذى في ذاته يمحق الإنفاق، ويمزق المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد"([1])

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

[1] في ظلال القرآن ٣٠٦/١- ٣٠٧.